رسـول الله فى حرج ، ويُظهـر القرآن عـلى أنه كذب ، ويقـول كلاماً يخالف الحقـيقة ، وعندها ، لهم أنْ يقولوا : لقد قال الـقرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ الَّذِينَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الفرقان] إجمـال لأشخاص معـروفين بذواتهم ، وقفوا من الرسول موقف العداء ، ومنهم مَنْ سبق أن قال : ﴿ يَـٰلَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ مَعَ الرَّسُـولِ سَـبِيـلاً ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْـتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُـلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان]

والحشر : الجمع للحساب ، لكن سيُحشَرون على وجوههم ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية ســألوا رسول الله : كيف يُمشُـون على وجوههم ، قـال ﷺ : « الذى أمـشـاهم على أرجلهم ، قـادر أن يُمـشـيـهم على وجوههم »[1] .

فالـذى يمْشى على وجـهه كـالذى يمشى على بطنه ، ولعله يُـجَر جراً ، ســواء أكان على وجهه أو على أى شـىء آخـر ، ثم إن الإنسان لا ينبغى له أن يسأل عن أمور هى مناط القدرة المطلقة .

والحق ـ تبارك وتعـالى ـ يُوضِّح هذه المسألة فى قـوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

(١) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا نبى الله يحشر الكافـر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على الرِّجْلين فى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦٠ ، ٦٥٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦) كتاب صفات المنافقين .

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾ [النور]

إذن : المشْى لا ينحصر فى الحالات التى نعرفها فقط ، إنما هى طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء .

لكن ، لماذا لم يذكر القرآن أسماء هؤلاء الأشخاص الظالمين المعاندين للإسلام ؟ قالوا : هذا من باب إرخاء العنَان للخَصْم ، وكلمة (العنان) تأتى بكسر العين وفتحها ، واللغويونَ يقولون : هى على وزن ما هى بمعناه ، فإن قصدتَ بها عَنان السماء فهى على وزن سَحَاب ، وإن أردتَ بها عِنان الفرس ، فهى على وزن لِجَام .

وراكب الدابة إنْ أرخى لها العنان تركها تسير كما تشاء ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يُرخى للخصم العنان ليقول كل ما عنده ، وليأخذه إلى جانبه ، لا بما يكره ، بل بما يحب . وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يردُّ عليهم ويجادلهم الجدل الهادئ بالتى هى أحسن ، فحين قالوا عنه مفتر ، وعن القرآن مُفترىً ومكذوب ردّ عليهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨)﴾ [يونس]

ثم يترقَّى فى جدالهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود] وفى آية أخرى يرد عليهم : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

وهل النبى ﷺ لا يعرف مَنْ على الهدى ومَنْ على الضلال ؟ لا شكَّ أنه إرخاء العنان للخصم ، يقول لهم : أنا وأنتم على طرَفى نقيض : أنا أقول بإله واحد وأنتم تُكذِّبون قولى ، فأنا متناقض معكم فى هذه القضية ، والقضية لا بُدَّ أن تأتى على شكل واحد ، فإمَّا أنا على الهدى ، وإمَّا أنتم ، وأنا لا أدّعى الحق لنفسى .

إذن : المطلوبَ أنْ تُعملوا عقولكم لتُميِّزوا مَنْ منّا على الهدى ومَنْ منّا على الضلال ، وكأن رسول الله يرتضى حكومتهم فى هذه المسألة ، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه ، وأنه على الهدى ، وأنهم على الضلال .

إذن : عندما تكلم القرآن عن كفار قريش الذين تعنتوا فى اقتراحاتهم ، وعاندوا وآذوا رسول الله بكل أنواع الإيذاء ، ومع ذلك حينما تكلم عنهم جاء بأسلوب عام فقال : (الذين) ولم يقل هؤلاء ، بل جاء بالقضية العامة ولم يُواجههم بالجزاء مما يدلّ على التلطف فى أمر الدعوة ، وهذا نوع من استمالة الخَصْم لنقطع منه شراسة العداء والعناد .

لذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] كأنك لم تَلِنْ لهم بطبْعك ؛ لأن عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكونَ قاسياً معهم ولكن رحمة الله شملتْك فَلنْتَ لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

هذا يعنى أن الداعية لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصدر ، رَحْب الساحة ، ذلك لأنه يُخرِج أهل الضلال عما ألفوه إلى شىء يكرهونه ، فلا تُخرجهم من ذلك بأسلوب يكرهونه ، فتجمع عليهم شدتين ، إنما تلطَّفْ معهم ، كما قال عز وجل لموسى وهارون عندما أمرهما بدعوة فرعون : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

لأن الذى بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله ، إنما يتكبّر على الخالق فيدّعى الألوهية لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليِّن لطيف .

وفى آية أخرى يُعلِّم الحق سبحانه رسوله ﷺ كيف يجادل المشركين ، فيقول سبحانه : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله ؟! وفى المقابل : ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول : ولا نُسأل عما تُجرمون ، لكنه نسب الإجرام لنفسه ، ولم يذكره فى حَقِّ الآخرين ، فهل هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا ؟

الحق - تبارك وتعالى - يعرض لكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يدّخرْ وُسْعاً فى سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه ؛ لدرجة أنه حمَّل نفسه فوق ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

يعنى : مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم ، وما عليك إلا البلاغ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد علم منه حرْصاً ورغبة أكيدة فى هداية قومه .

ومعنى : ﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) ﴾ [الفرقان] قوله تعالى ﴿ شَرٌّ .. (٣٤) ﴾ [الفرقان] ولم يقُلْ أشر ؛ لأن معناها : أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إرخاء العنان للخصم .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن أقوام الرسل السابقين :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا(١) (٣٥) ﴾

---

(١) الوزير : المعين والمساعد . قال فى [لسان العرب - مادة : وزر] : « الوزير فى اللغة اشتقاقه من الوِزْر ، والوزر : الحبل الذى يعتصم به لينجى من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجىء إليه » .

سبق قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ .. (٣١) ﴾ [الفرقان] فلا بُدَّ أن يكون لكل نبى أعداء ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان المكارم الذى تحكم فيه ناس مُستبدون فى شراسة، وأهلُ فساد سيُحْرمون من ثمرة هذا الفساد ، فطبيعى أنْ يقفوا فى وجه الدعوة .

لذلك يضرب الحق سبحانه لرسوله ﷺ بعض الأمثال من موكب الرسالات ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) ﴾ [الفرقان]

كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد تعرضتَ لمشقة دعوة أُنَاس لا يؤمنون بالإله ، أمّا موسى فقد تعرض لدعوة مَن ادعى أنه إله ، إذن : هناك مَنْ تحمل كثيراً من المشقات فى سبيل الدعوة ، لدرجة أن موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمة وحده .

فنراه وهو النبى الرسول الذى اختاره الله - يقول : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص] وهذا يعنى أن موسى - عليه السلام - يعلم مدى المشقة ، وحجم المهمة التى سيقوم بها .

فالرسالات السابقة كان الرسول يُبعَث إلى أمته المحدودة فى الزمان وفى المكان ، ومع ذلك لاقوا المشقات ، أما أنت يا محمد فقد أُرسلتَ برسالة عامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ أن تكون متاعبك مثل متاعب مَنْ سبقوك جميعاً .

﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾

الخطاب فى ﴿ اذهبا .. (٣٦) ﴾ [الفرقان] للرسول موسى ، وللوزير هارون وقال : ﴿ إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا .. (٣٦) ﴾ [الفرقان] مع أن فيهم مَن ادعى الألوهية استمراراً لإرخاء العنان للخَصْم ، فقد كذَّب فرعون بأن من آيات الله أن يؤمن بإله واحد .

ثم كانت النهاية ﴿ فدمرناهم تدميرا (٣٦) ﴾ [الفرقان] لأنهم وقفوا من موسى وهارون موقفَ العداء ، وقامت بينهما معركة تدخل فيها الحق سبحانه ، ودمرهم تدميراً ، كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن فإنْ حادوا عن جادة الحق وأبَوْا أنْ يأتوك طائعين ، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) ﴾

ذكر الحق - تبارك وتعالى - نوحاً بعد موسى عليهما السلام ؛ لأن كلاً منهما تميَّز فى دعوته بشىء ، وتحمَّل كل منهما ألواناً من المشقة ، فموسى واجه مَن ادعى الألوهية ، ونوح أخذ سُلْطة زمنية واسعة انتظمتْ كل الموجودين على الأرض فى وقته - ولا يعنى هذا أنه - عليه السلام - أُرسل إلى الناس كلهم ، إنما كان قومه هم الموجودون على الأرض فى هذا الوقت - فقد لَبثَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

واقرأ قصته - عليه السلام - فى سورة نوح لتقف على مدى معاناته فى دعوة قومه طوال هذه الفترة ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وكانت الغَلَبة له فى النهاية .

وأيضاً لأنه ـ عليه السلام ـ تعرّض لأمر يتعلق بالبنوة ، بُنوّة في المنهج ، وبُنوة في النسب ، فقد كان ابنه ـ نسباً ـ كافراً ، ولم يتمكن من هدايته ، ولما قال لربه عز وجل ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] قال له : ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فجعل حيثية النفي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] فالنسب هنا عمل وطاعة ، فكأن البنوة للأنبياء بنوة عمل ، لا بنوة نسب ، فابنك الحق مَنْ سار على منهجك ، وإنْ لم يكُنْ من دمك .

مسألة أخرى نلحظها في الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام في مقام تسلية رسول الله ﷺ ، فهما يشتركان في ظاهرة كونية تستحق التأمل والنظر ، فكل مظاهر الكون التي أمامنا لو حققنا في كل مظهر من مظاهرها بعقل وتُؤدَة ويقين لأمكَننا أن نستنبط منها ما يُثرى حياتنا ويُترفها ويُسعدها .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ ينعى على الذين يُعرضون عن النظر في آياته ، فيقول : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

وسبق أن قلنا : إن كل المخترعات التي رفَّهتْ حياة الناس وأسعدتهم ، وقلّلت مجهوداتهم ، وقصّرت الوقت عليهم ، كانت نتيجة الملاحظة والتأمل في مظاهر الكون كالذي اخترع العجلة والبخار .. إلخ .

وهنا نلاحظ أن العلاقة بين موسى ونوح ـ عليهما السلام ـ أن الله تعالى يُهلك ويُنجي بالشيء الواحد ، فالماء الذي نجَّى موسى هو الماء الذي أغرق فرعون ، والماء الذي نجَّى نوحاً هو الماء الذي أغرق

الكافرين من قومه . فهـذا تسلية لرسول الله ﷺ ، فالله تعالى إنْ أراد الإنجاء يُنجِّى ، وإنْ أراد الإهلاك يُهلِك ، ولو بالشىء الواحد .

ألاَ ترى أن أصحـاب موسى حـينمـا رأوا البـحر من أمـامـهم ، وفرعون من خلفهم قالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] فهذه حقـيقة وقضـية كونيـة مَنْ يملك ردّها ؟ إنما ردها مـوسى فقـال (كَلاَّ) لن نُدرك ، قالها بملء فيه ، لا ببشريته ، إنما بالربوبية التى يثق فى أنها لن تسلمه ، ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

وكذلك كانت مسألة نوح عليـه السلام ، لكن بطريقة أخرى ، هى السفينة ، وفكرة السفينة لم تكُنْ مـوجودة قبل نوح عليه السلام ، ألم يصادف واحـد شجـرة مُلْقاة فى الماء تـطفو على سطحه ، فـفكّر فى ظاهرة الطفو هذه ، وكـيف أن الشجرة لم تغطس فى الماء ؛ لـقد كان النجارون المـاهرون يقيسون كـثافة الخشب بأن يُلْقـوه فى الماء ، ثم ينظروا مقدار الغاطس منه فى الماء ، وعليه يعرفون كثافته .

هذه الظاهرة التى تنبه لها أرشميـدس وبنَى عليها نظرية الأجسام الطافية والماء المُزَاح ، وتوصّل من خلالهـا إلى النقائض ، فبها تطفو الأشياء أو تغـوص فى الماء ، إنْ زادت الكثافة يثـقل الشىء ويغوص فى الماء ، وإنْ قلَّتْ الكثافة يطفو .

وتلاحظ ذلك إذا رميتَ قطعة نقود مثلاً ، فإنها تغطس فى الماء ، فإنْ طرقتَـها حتى جعلتـها واسعةَ الرقعـة رقيقة ، فإنـها تطفو مع أن الكتلة واحدة ، نعم الكتلة واحدة ، لكن الماء المُـزَاح فى الحالة الثانية أكثر ، فيساعد على طفْوها .

وقـد أراد الحق ـ تـبـارك وتعـالى ـ أن يُنبِّـه الإنـسـان إلى هذه الظواهر ، ويهديه إلى صناعة السـفن التى تحمله فى الماء ؛ لأن ثلاثة

أرباع الكرة الأرضية مياه ، وقد جعل الله لك وسائل مواصلات فى الربع ، ألاَ يجعل لك مواصلات فى الثلاثة أرباع ؛ فتأخذ خيرات البحر ، كما أخذت خيرات البَرِّ ؟

وتأمل أسلوب القرآن : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ .. (٣٧) ﴾ [الفرقان] ومعلوم أنهم كذَّبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرسل ، قالوا : لأن النبوة لا تأتى بمتعارضات ، إنما تأتى بأمور مُتفق عليها ؛ لذلك جعل تكذيبَ رسول واحد كتكذيب جميع الرسل .

ثم ذكر عاقبة ذلك : ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .. (٣٧) ﴾ [الفرقان] وكلمة ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ .. (٣٧) ﴾ [الفرقان] تعنى : أن الذى أغرق المكذبين نَجَّى المؤمنين ، وإغراق المكذبين أول عملية تردُّ على سخريتهم من نوح ، حينما مرُّوا عليه وهو يصنع السفينة : ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

ولم يكن الغرق نهاية الجزاء ، إنما هو بدايته ، فهناك العذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) ﴾ [الفرقان] وهكذا جمع الله عليهم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة .

ثم يضرب الحق - تبارك وتعالى - لرسوله مثلاً آخر :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾

إنها نماذج من المتاعب التى لاقاها الرسل من أممهم ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف] . ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وكانت النهاية أن نصر الله أولياءه ورسله ، ودحر خصومهم والمكذِّبين بهم ، كل ذلك ليقول لرسوله ﷺ : يا محمد لست بدعاً من الرسل ، فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك كما قال :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إنها قضية يطلقها الحق - تبارك وتعالى - لا للتاريخ فقط ، ولكن لتربية النفس البشرية ، فإنْ أردتَ الغلبة فكُنْ في جند الله وتحت حزبه ، ولن تُهزَم أبداً ، إلا إذا اختلَّتْ فيك هذه الجندية ، ولا تنْسَ أن أول شيء في هذه الجندية الطاعة والانضباط ، فإذا هُزِمْتَ في معركة فعليك أن تنظر عن أيٍّ منهما تخليْتَ .

لذلك رأينا في غزوة أحد أن مخالفة الرماة لأمر رسول الله قائد المعركة كانت هي سبب الهزيمة(١) ، وماذا لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر الرسول ؟ لو انتصروا لَفهموا أنه ليس من الضروري الطاعة والانقياد لأمر رسول الله . إذن : هذا دليل على وجوب الطاعة ، وألاَّ يخرجوا عن جندية الإيمان أبداً خضوعاً وطاعة ، ولا تقولوا : إن الرسول بيننا فهو يُربيكم ؛ لأنه لن يخلد فيكم .

---

(١) أمَّر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال له ﷺ : « أنضح عنا الخيل بالنبل لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » [دلائل النبوة ٣/٢٢٧] وفي رواية أخرى (٣/٢٢٩) : أن النبي ﷺ قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . ثم لاحت لهم الغنائم ، فقال الرماة : الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فأتوهم فصرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين » .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ .. (٣٨) ﴾ [الفرقان] الرسّ : هو البئر أو الحفرة ، وكانت في اليمامة ، ويُسمُّونها الأخدود ، وقد ورد ذكرها في سورة البروج .

وقد قال سبحانه هنا : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) ﴾ [الفرقان] لم يُرد الحق سبحانه أنْ يُعدِّد كل الأمم السابقة ، واكتفى بذكْر نماذج منها ، وفي مواضع أخرى يجمعهم جملةً ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) ﴾

﴿ وَكُلًّا .. (٣٩) ﴾ [الفرقان] أي : كُلٌّ من المتقدمين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ .. (٣٩) ﴾ [الفرقان] يعني : لم أدع رسولاً إلا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله ، أقول له : انظر فيمَنْ سبقك كيف كذَّبه قومه ؟ وكيف عاندوه ووقفوا منه هذا الموقف ، ومع ذلك كانت له الغلبة عليهم ؛ ذلك ليأخذ كُلُّ نبي شحنةَ مناعة وطاقة يصمد بها أمام شدائد الدعوة ، فلا يلين ، ولا ييأس ، وليْكُنْ على يقين أن النهاية له وفي صالحه .

﴿ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) ﴾ [الفرقان] أي : أهلكنا ودمرنا كل من كذَّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعوقب بعضهم بالصيحة أو الخسف أو الإغراق أو بالريح الصرصر العاتية .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾(١)

هذه المشاهد لم تكن مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، إنما مشاهد ومَرَاء رآها كفار مكة فى رحلة الصيف يمرون على هذه الديار ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] إذن : فهذا التاريخ له واقع يسانده ، وآثار تدل عليه .

والقرية التى أُمطرتْ مطر السَّوْء هى سدوم قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان] ألم يشاهدوها فى أسفارهم .

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان] كلمة (بَلْ) للإضراب ، فهى تنفى ما قبلها ، وتُثبت ما بعدها ، فالمعنى : أنهم مَرُّوا عليها وشاهدوها ، ويَعْرفونها تمام المعرفة ، لكنهم لا يرجُونَ نُشُوراً يعنى : لا ينتظرون البعث ، ولا يؤمنون به ، ولا يعترفون بالوقوف بين يدى الله للحساب ، ألم يقولوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ ألاَّ يؤمنَ هؤلاء بالبعْث والحساب ، وهم أنفسهم كانوا إذا رأَوْا ظالماً وقفوا فى وجهه ومنعوه من الظلم ، كما كان فى حلْف

(١) المقصود بهم مشركو قريش ، فقد كانوا فى الصيف يمرون على قرية قوم لوط فى رحلتهم إلى الشام فى الصيف .

الفضول مثلاً ، فيأخذون الظالم ويعاقبونه حتى يرجع عن ظُلْمه ، ثم يردُّون للمظلوم حَقّه ، لكن ألم ينظروا فى حال الظالمين الذين مرُّوا فى الدنيا دون عقاب ، ودون قصاص ؟ أليس من العدل أن تكون لهم دَارٌ أخرى يُحاسبون فيها ؟

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين بهذه المسألة ، نقول لهم : لقد عذبتُمْ أعداءكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وانتقمتُم منهم فما بال الذين سبقوكم ولم تدركوهم ؟ أليس من العدل أنْ تعترفوا بيوم جامع يُحاسب فيه هؤلاء ؟

ولما قال القائل : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه ، قالوا له : إن فلاناً الظالم قد مات ، ولم نَرَ فيه شيئاً ، فقال : إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

وبعد أن عرض الحق - تبارك وتعالى - بعض النماذج من موكب النبوات تسليةً لرسوله ﷺ يُبيِّن أن الأمر مع هؤلاء الكفار لن يتوقف عند العناد والتعنّت بمطالب سخيفة ، إنما يتعدّى ذلك إلى محاولة الاستهزاء به والسخرية منه ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾

(إنْ) نافية بمعنى : ما يتخذونك إلا هُزُواً ، ثم ذكر صيغة الاستهزاء : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قالوا : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] كأنه ﷺ دون هذه المنزلة ، وما دام الرسول فى نظرهم دون هذه المنزلة

فإنهم يريدون شخصاً على مستوى المنزلة ، كما قالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

ومعنى هذا أنهم مؤمنون بضرورة وجود إله ورسول ومنهج ، وكل اعتراضهم أن تكون الرسالة فى محمد بالذات .

ثم يتناقضون مع أنفسهم ، فيقولون :

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

فكيف تستهزئون به وترَوْنه دون مستوى الرسالة ، ثم تقولون إنه كاد أنْ يُضلكم عن آلهتكم يعنى : قَرُبَ أنْ يُضلّكم عن آلهتكم ، مع ما أنتم عليه من التعنّت والعناد ؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله أنه قوىٌّ وأنه على مستوى الرسالة ، وأنه لم يدخر وُسْعاً فى دعوتكم ، حتى كاد أنْ يصرفكم عن آلهتكم .

والدليل على أنهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله عليهم قولهم لأتباعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] إذن : يريدون أنْ يُشوِّشوا على القرآن لما يعلمون من تأثيره فى النفوس ، وهم أمة فصاحة وبلاغة ، فإنْ سمعوا القرآن فلا بُدَّ أن يُؤثِّر فى قلوبهم ويجذبهم إليه .

ألا ترى قصة إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ وكيف كان قبل الإسلام شديداً جباراً ؟ فلما تهيأت له الفرصة فاستمع للقرآن وصادف منه ملكةً سليمة وفطرة نقية ، حيث أعاده حادث ضَرْبه

لأخته وشَجَّه لها ، أعاده إلى سلامة الفطرة والطويّة ، فلما سمع منها القرآن وصادف منه قلباً نقياً وفطرة سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعلن إسلامه .

إذن : فقولكم : ﴿إن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] دليل على أنه كُفْء للمهمة التى بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١)﴾ [الفرقان]

وقولهم : ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا .. (٤٢)﴾ [الفرقان] يدل على أنه ﷺ فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا[1] على الضلال ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الفرقان] سيعرفون ذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، وبعد ألاَّ تنفعهم هذه المعرفة .

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣)﴾

الحق - تبارك وتعالى - يضع لرسوله ﷺ قضية ، هى أن الدين إنما جاء ليعصم الناس من أهواء الناس ، فلكُلِّ نفس بشرية هَوىً ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره ؛ لأن غيره أيضاً له هوىً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا : لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواءُ مختلفةً ؛ لأن مجالات الحياة متعددة ، فهذا هواه فى كذا ، وهذا هواه فى كذا . فترى الصديقَيْن يلازم أحدهما الآخر ، ويشاركه طعامه وشرابه ، فلا يفرقهما شىء ، فإذا ما ذهبا لشراء

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩١١/٧) : « أى : حبسنا أنفسنا على عبادتها » .

شىء ما تباينتْ أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ، فالذين اختلفوا مثلاً فى تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عَيْن الوفاق ، ووفاق هو عَيْن الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت تفضل مثلاً ورك الدجاجة وغيرك كذلك يفضله ، وصادف أن فى المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شكَّ أنكما ستختلفان عليه . إذن : اتفقتما فى الأول لتختلفا فى الآخر ، لكن إن اختلفتْ رغباتكما ، فسوف ينتج عن هذا الاختلاف اتفاقٌ فى النهاية ، فأنت ستأخذ الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا - إذن - خلاف يؤدى إلى وفاق ، ووفاق يؤدى إلى خلاف .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣) ﴾ [الفرقان] الهَوَى . أن تكون هناك قضية ظاهرٌ فيها وَجْه الحق ، إلا أنك تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهله .

لذلك يقول العلماء : آفةُ الرأى الهوى . فالرأى قد يكون صائباً ، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقلنا : لا أدلَّ على ذلك من أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الذى يعبده ، فيلْقى الإله الذى يعبده ليأخذ هذا الذى هو أجمل منه فيتخذه إلهاً ، إذن : هواه فى جمال الحجر غلب أنه إله .

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى فى حَقِّ النبى ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [النجم]

يقولون : كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى ، وقد عدَّل الله له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴿١﴾ ﴾ [التحريم]

وقال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

ولا بُدَّ أن نُحدِّد مفهوم الهوى أولاً : أنت مدرك أن لديه قضيتين : الحق واضح فى إحداهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق . إنه ﷺ نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجه الحق فيها ، فهو - إذن - لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهاده .

ألاَ ترى قوله تعالى لرسوله ﷺ فى مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] فمعنى أن نسبته لأبيه أقسط أن رسول الله لم يكُنْ جائراً ، فما فعله قِسْط ، لكن فِعْل الله أقسط منه .

فالحق - تبارك وتعالى - لم يُخطِّىء رسوله ﷺ ، وسمَّى فعْله عدلاً ، وهو عَدْل بشرى يناسب ما كان من تمسُّك زيد برسول الله ، وتفضيله له على أهله ، فلم يجد رسول الله أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان] وكيلاً يتولَّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية] وقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس] وقال : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى]

فالذى اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ

يعدل عن هواه ؛ لأن الأهواء مختلفة ، فالبعض يريد أنْ يتمتع بجهد غيره ، فيضع يده فى جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسرُه أن يفعل الناسُ معه مثلَ فعْله معهم ؟ إذن : هوى صادمَ هوى ، فأيُّهما يغلب ؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقضية الحق فى ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ يَسْمَعُونَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] أى : سماع تعقُّل وتدبُّر ، فلو سَمِعُوا وعَقلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدِّ ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] مع أن الأنعام مُسخَّرة وتُؤدِّى مهمتها ولم تمتنع عن شىء خُلقَتْ له ، فقد شبَّههم الله بالأنعام ؛ لأن الأنعام لا يُطلب منها أن تسمع الهداية لأنها مُسخَّرة ، والذى يُطلب منه السماع والهداية هو المخيَّر بين أن يفعل أو لا يفعل .

كأن الحق سبحانه يقول : أتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قانون الاحتمال ، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم ، إذن : كان فيهم مَنْ يسمع ، ومَنْ يفكر ويعقل ؛ لذلك قال ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] ليحمى هذا الحكم ، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دِقَّة فى تحرِّى الحقيقة .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قَتْل أحد صناديد الكفر في المعركة ، فكانوا يألمون لذلك أشدَّ الألم ، وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدخرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذي أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول .

والأنعام قُلْنا : لا دخلَ لها في مسألة الهداية أو الضلال ؛ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها ؛ لذلك ضرب الله بها المثل لليهود : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة] فالحمار مهمته أنْ يحمل فحسب ، أمّا أنت أيها اليهودي فمهمتك أن تحمل وتطبق ، الحمار لا يطبق ؛ لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ، ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فسار به الجواد إلى بيته .

إذن : فالأنعام تفهم وتعقل في حدود المهمة التي خلقها الله لها ، ولا تُقصِّر في مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها في باطن الأمر ، لكن لا يُطلَب منها شيء الآن ؛ لأنها انتهتْ من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ۝ ﴾ [الأحزاب]

فاختاروا أن يكونوا مُسيَّرين بالغريزة محكومين بها ، إذن : فلهم اختيار ، لكن نفّذوا اختيارهم جملةً واحدة من أول الأمر .

خُذْ مثلاً الهدهد وهو من المملوكات التي سخَّرها الله لسليمان - عليه السلام - يقول له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ ﴾ [النمل] أيُّ ديمقراطية هذه التي تمتَّع بها الهدهد مع سليمان .؟! إذن : فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإنْ لم يُطلَب

منهـا شيء ، والحيوانـات لا يمكن أنْ تفعل شـيئاً إلا إذا كـان منوطاً بغرائزها وفي مقدورها .

وسـبق أنْ ضربنا مـثلاً بالحـمار ، إذا أردتَ منه أن يقـفز فـوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإنْ كان في مقدوره قفزَ ، وإنْ كان فوق مقدوره تراجَع ، ولا يمكن أنْ يُـقدم مهما ضربتـه ؛ لأنه علم بغريزته أنه فوق إمكاناته ، أمـا الإنسان فقـد يُقدِم على مثل هذا دون حـساب للإمكانات ، فيُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وهو خـالق الآيات في الكون يُنبِّه إليها الخَلْق ، وكان من المفروض مـمَّن يرى الآيات أنْ يتنبه إليها بدون أنْ يُنبه ، فـإذا رأى عجيبـة من عجائب الكون تأملها ، وسـبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بمَن انقطعت به السُّبل في صحراء شاسعة ، ليس بها أنيس ولا حياة ، وقد بلغ به الجـهد حتى نـام ، فلما استـيقظ وجـد مائدة عليها أطايـب الطعام أو الشراب ، بالله قبل أنْ تمتـدَّ يده إلى الطعام ، أليس من المفروض أنْ يفكر في هذا الطعام ، مَنْ أتى به ؟ وأعدَّه على هذه الصورة ؟

إذن : في الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهك لتبحث فيها وفي آثار وجودها وكلها آيات عالية عنَّا وفـوق إمكاناتنا : الشمس والقمر ، الهـواء والمطر .. إلخ . ومع ذلك لم يتـركك الله ؛ لأن تتنبـه أنت ، بل نبَّهك ولفتك وجذب انتباهك لهذه ولهذه .